

الطابع القومي

في الثقافة الأزهرية

(أقيمت في اليوم الأول من أيام المؤتمر الثقافي العربي الثاني)

للدكتور محمد البهي

هناك في التوجيه التربوي نظرتان مختلفتان ، أو اتجاهان متعارضان : اتجاه يهدف إلى تكتل في نطاق خاص سونا لجماعة معينة أو شعب معين ، وهو ما يعرف بالاتجاه القومي ؛ وآخر يرمي إلى تحطيم الفواصل الخاصة بين الجماعات أو الشعوب ، أملا في خلق وحدة عامة أو اتحاد عام بينها ، حتى يحترق بين الناس جميعا ما اعتيد تسميته « السلام العام » ، وهذا الاتجاه هو ما يعرف بالاتجاه العالمي في التربية والتوجيه

ويقال ضد نزعة القومية في التربية : أنها ظاهرة من ظواهر البدائية في الجماعة ، لأن مثل هذه النزعة تعتمد على ضرب من المبالغة في تقويم الميزات الخاصة بجماعة ما والرغبة في صيانة هذه الميزات ، والتقوم على هذا النحو دخل فيه عندئذ عنصر غير ذاتي ، وهو انتساب نوع من الخصائص للجماعة الدينية ، ولم يقف عند حد جوهر الخصائص ، والمبالغة في التقويم تنشأ عادة من ضيق في أفق التفكير أو عن سطحية النظرة إلى الأشياء ؛ وضيق الأفق ، وكذا سطحية النظرة من أمارات البدائية في تفكير الفرد والجماعة .

لكن قد يقال : ان الاتجاه القومي في التربية لا يدل حتما على بدائية في التفكير ، بل قد يصدر من حاجة قوية في الجماعة إلى تكتل ما أبرز شعورها بالاضطهاد من جماعة أخرى . والاتجاه في مقاومة الضمف أو المدافعة الاضطهاد إلى اذكاء الروح القومية عن طريق التنشئة والتربية لا يمر عن بدائية ، بل بالعكس يتم عن رفق في تفكير الجماعة . إذ الشعور بعمى الجماعة — وهو وراء الأشخاص والأفراد — واتخاذ وسيلة غير حسية في مقاومة

الضمف أو الاضطهاد ، وهو وسيلة التربية هنا ، يدل على تطور في التفكير .

وسمى كل من المسكرين السياسيين الشرق والغرب ، أو الشيوعي والديمقراطي ، في وقتنا الحاضر إلى التكتل بتتبيه كل منهما إلى مزاياه الخاصة لا بمد ظاهرة من ظواهر البدائية ، إذ هو وليد العبقرية السياسية وقيادة الجماعات . وهو — وفن لم يصل البدائيون بمد إلى ادراكه فضلا عن ممارسته

وربما كان تصور الاتجاه القومي في التربية بأنه نزعة بدائية يتصل بالدعاية التي يبثها أرباب الاتجاه الآخر عندما يحاولون تبرير وجود اتجاههم ووجوب سيادته .

أما الاتجاه العالمي فقد كثر الحديث عن مزاياه منذ بداية القرن العشرين وقيل في تفضيله ؛ إنه يدعو إلى الاخوة الانسانية ، يدعو إلى محو الفوارق التي أقامتها التقاليد والمادات بين الأجناس والجماعات ، يدعو إلى إزالة أسباب الحقودن نفوس البشر قاطبة ، يدعو إلى إضعاف العقبات التي تحول دون تمكين الأفراد من استغلال مواهبهم الذهنية أو الاقتصادية أينما وجدوا ، يدعو على وجه الاجمال إلى الحرية والأخاء والمساواة ... إنه من وحي الديمقراطية وهدف الأحرار .

ويجب في نظر أصحابه ألا يأخذ الدين ، ولا التقاليد والمادات ، ولا اللغة ، ولا مقومات الحياة في الجماعة الخاصة على وجه الموم ، ولا تاريخها وما انطوى عليه من أحداث كان لها أثرها في خلق شخصيتها ، الاعتبار الأول في التوجيه . وبالأحرى يجب — تمكينا لعنى الديمقراطية في التربية — أن تنقل هذه المبادئ أو نهمل وعلى الأقل من الوجهة الرسمية ومن المباشرين الرسميين لشئون التعليم

وقد برز هذا الاتجاه اللاقومي في التربية بعد الحرب العالمية الأخيرة في صورة جديدة وأخذ طريقا رسميا بين حكومات العالم المختلفة ، واحتضنته مؤسسة الثقافة والتعليم والتربية التابعة لهيئة الأمم المتحدة (اليونسكو)

لكن مما يأخذ بعض المربين على هذا الاتجاه أنه لا يدعو دائرة الأمل إلى واقع حياة الأمم على السواء . ويمثلون ذلك بأنه ما دامت هناك أمم كبرى وأمم صغرى . ما دامت هناك

مثل هذه الظواهر تحيط الاخلاص للزعة العالمية في التربية من جانب الأمم الكبرى بيمض الشك عند من لا يحسن الظن من الريين بدوافع هذه الزعة ، وتجهله يتساءل في حيلة : أليس أولى بالأمم الضعيفة ألا تزيد في عوامل ضعفها بالتحلل أو بالخروج عن مقوماتها الذاتية كجماعات خاصة ؟

— إن كيان الأمة - كجماعة - يعتمد على تاريخها وأتجاهها الخاص في التفكير ، ودينها ولغتها وتقاليدها أكثر مما يعتمد على مصدر الثروة المادية فيها وعلى موطئها الجغرافي الخاص . فان هي عملت على اغفال هذه المقومات في النشئة والتربية أصبحت أفراداً منتورة أو انقسمت إلى طوائف متعددة مختلف حيث في الانتساب إلى اتجاهات فكرية متعارضة وتتبع مذاهب مختلفة في السلوك وتقدير قيم الحياة .

الاتجاه العالمي أمل يجب أن نباركه في حيلة وحذر . ولا غنى لنا من الأخذ بالاتجاه القومي في تربيتنا كشعوب صغيرة ، لا اقتداء بواقع الأمم الكبرى ، ولكن بحفاظة فحسب على كياننا ووجودنا الخاص

وإن فكرة هذا المؤتمر الثقافي وعقده من ممثلي الشعوب العربية لمناقشة الأسس التربوية السليمة في توجيهها مشتقة من الرغبة في الحرص على هذا الكيان الخاص

ومقومات شعوبنا هذه كأمم تعيش في جو عربي اسلامي تتصل اتصالاً وثيقاً بالدين والتقاليد واللغة العربية وأدبها، وبالفكر الاسلامي واتجاهاته ، وبتاريخ الأطوار السياسية التي تملأ من نظم الحكم والتنشيرات الداخلية وعوامل هذا التنشير في الأمة الاسلامية . وبمباراة أخرى تعتمد مقومات هذه الشعوب على ماضيها في المعرفة والفكر والتاريخ . وذلك مايمثل التراث الاسلامي والأزهر منذ وجوده - في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي - يعني بهذا التراث الاسلامي : يعني بالدين في صورته المختلفة، إن في دائرة العقيدة ، أو التشريع ، أو السلوك، ويعني باللغة العربية وما يتضمن بأسلوبها وأدبها، ويعني بدراسة الحركات السياسية الاسلامية منذ الدهوة إلى الاسلام حتى تدخل النفوذ

قوة مادية لها السلطان في التوجيه وقيم أخرى معنوية باقية في دائرة « المثل » التي لا ظل لها في الوجود الواقعي سوف لا يتحقق معنى الأخاء والساواة ، وبالتالي لا يتحقق السلام العالمي الذي هو الهدف الموعود لمذهب « العالمية » في التربية والتوجيه

على أن بعضاً آخر من الريين لا يحسن الظن فوق هذا بدوافع هذا الاتجاه ، ويرميه بأنه وسيلة من وسائل الخداع التي تستعملها الدول الكبرى وهي تلك التي لها القوة المادية في الصناعة والاقتصاد ، ولها القوة الملوية كذلك لاستغلال الأمم الصغرى وهي المختلفة عنها في هذه النواحي من الحياة ، لكن لها ثروة كبيرة في المواد الأولية

وهذا البعض يحاول أن يدلل على سوء ظنه من واقع الأمم الكبرى نفسها ، فيذكر أن الأمم الكبرى - سواء عن طريق الحكومات فيها أو عن طريق الجمعيات المختلفة هناك - تعنى بالاتجاه القومي في التربية ، تعنى في توجيه الناشئة بمقومات هذا الاتجاه ، وهي الدين ، والتقاليد ، واللغة وتراثها الماضي الذي يتمثل نط تفكيرها وتاريخ تطورها كجماعة خاصة

حتى الماديات التي لا تتفق على الاطلاق مع الزعة العالمية - كما هو الحال في أمريكا وأنجلترا وجنوب أفريقيا من التفريق بين البيض واللونين في المعاملة والتقدير - لا تلقى معارضة جديده من السلطات الرسمية هناك ، وهذه الماطات بيئها تدعو الشعوب الأخرى إلى تطبيق الاتجاه العالمي في معاهدها التعليمية .

ويقولون إن من يزر كنية « ايتون » بانكلترا يدرك ادراكاً واضحاً عناية القائمين على التوجيه فيها بمناصر القومية في التربية من دين البلد ، وتقاليده ، والتاريخ الماضي له . فطلاب هذه الكنية - وهم أبناء الطبقة الارستقراطية في إنجلترا - يفتتحون الدروس اليومية كما يحتتمونها بالصلاة في كنيسها التقليدية

وجامعة ايسفورد ترجع شهرتها في النساب إلى رعاية التقاليد في كثير من نظمها ، والانكلترا عرفوا على العموم بالحرص على التقاليد . وقصر ثقاتهم اللغوية على الوطنية مظهر من مظاهر هذا الحرص . إذ قلما نجد بين المثقفين فيهم من يجيد لغة اجنبية أخرى

الاقتصاد وميدان الصناعة ، أو في دائرة المعاديات والتقاليد .
(ب) ساعد على نشر الثقافة الغربية في هذه الشعوب ون طريق ترويج اللغات الأوربية بشق الوسائل وحمايتها من منافسة اللغة العربية لها وهي اللغة الوطنية ، وكذا عن طريق تمكين الفكر الأوربي من أن يأخذ طريقه نحو السيطرة على توجيه الجماعات الشرقية الإسلامية .

والذي يعني من ذكر الوسيلة الأولى بيان أنه : لماذا كان الأزهر هدفاً لاضطهاد غير مباشر من حملة الاستثمار الغربي ... أخذ اضطهاد الأزهر صوراً عديدة : أكثر لسان الاستثمار من الحديث أولاً عن جهوده وتمصب رجاله وتشدهم في تعصبهم ؛ ثم تطور هذا الحديث إلى ذكر أن الأزهر يبعد قاصديه عن الحياة العامة أو يحول بينهم وبين الانتفاع بالحياة المادية والتمتع بالوجاهة الاجتماعية ، ثم انتقل إلى ادعاء أن الأزهر عقبة في تقدم مصر وسيرها نحو المدنية الأوربية أو الأمريكية . ولا زالت أذكر قصة تلك الأنسة الفلسطينية التي طلبت في عام سابق على العام الماضي معلومات عن الأزهر وأتجاهاته التربوية والتعليمية كي تستعين بها على إعداد رسالتها في قسم الماجستير بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . وأدهشني منها أول سؤال وجهته إلى وهو : هل الأزهر حقيقة عقبة في طريق رقي مصر ... فلما سألتها عن تحديد مظاهر ذلك أجابته بأنها قرأت مضمون السؤال فقط في كتاب تربوي حديث لأستاذ أمريكي .

وأثرت فعلاً هذه الحملة المنفضة على الأزهر وعلى التنسين إليه وحالت بين رجاله والمساهمة في الحياة التعليمية في مصر في المعاهد الأخرى غير المعاهد الدينية ، واضطر كثير منهم تحت ضغط هذه الحال إلى الانزواء عن الحياة العامة والاحتكاك بغيرهم على مسرح عام .

وهذا الذي نسب إلى الأزهر في مصر من جهود وتمصب وكونه عقبة في طريق التقدم رمى به جامع الزيتونة في تونس وما شاكله في صراكش وبشداد ودمشق وأم درمان من معاهد الثقافة الإسلامية .

ولم يقف الأمر في محاربة هذه المعاهد عند حد تصورها بهذه الصورة المفرة ، بل اتخذ معها عمل إيجابي آخر هو محاولة الحلولة

الأوربي في توجيه سياسة البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر . بل ذهب بعض علماء الأزهر في الحرص على هذا التراث والكتابة به إلى حظر دراسة أية مادة أخرى لا تتصل بالإسلام نفسه وإن اشتغل بها كثير من علماء المسلمين في كل العصور ، وكان لها أثر في مجال الفكر العربي الإسلامي .

واستمر هذا البعض من العلماء على هذا المنظر مدة طويلة إلى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ومن أجل ذلك رمى بالجهود مرة والتمصب مرة أخرى . وربما كان لهذا المنظر على هذا النحو - مضافاً إلى عوامل أخرى سنذكرها - أثر في تضييق المجال أمام الثقافة الإسلامية

ولم يكن موقف هؤلاء المتشددين إلا إسرافاً في الغيرة على التراث الإسلامي . فالأزهر يحق موطن الدراسة القومية في الشرق الإسلامي . ولذا كان مصدراً للحركات السياسية الوطنية في مصر وغيرها من البلاد العربية ، كما كان مدرسة لتخريج زعماء الفكر وقواد النهضات التحريرية من النفوذ الاستعماري في العالم الإسلامي .

وليس ذلك لأنه كان المعهد الوحيد أو الرئيس في القرن التاسع عشر لنشر الثقافة والتعليم في مصر ، بل لأنه كما ذكرنا مصدر الثقافة القومية .

ارتبط الأزهر بهذه الثقافة الإسلامية ارتباطاً عرفت به في العالم الإسلامي حتى صار تلازمهما في تصور الشعوب الإسلامية الأخرى أسراً واضحاً . إن ذكر الأزهر ذكرت الدراسات الإسلامية ، وإن أشير إلى الثقافة الإسلامية عرف الأزهر كمصدر لها والأزهر إن تناول على غيره من معاهد العلم في الشرق بهذه الصلة في معرض الإشادة بالمحسن ، فهذه الصلة نفسها قد جرت عليه كثيراً من الناعب ، كانت سبباً في محاربهه وتضييق الخناق عليه

فالاستثمار الأوربي للشعوب الإسلامية اتخذ وسيلتين رئيسيتين للوصول إلى تحقيق هدفه :

(أ) عمل على كبت النزعة القومية في الشعوب الإسلامية أينما وجدت هذه النزعة ، في التعليم والتشريع ، أو في مجال

الأزهر يمكن أن يساهم مساهمة فعالة في دفع النهضة الشرقية الوطنية خطوات إلى الأمام لو أزيلت من طريقة العقبات. إن المرحوم الشيخ محمد عبده اشتغل بالسياسة ، واشترك في الحركات الوطنية الاستقلالية في الفرق الثورية ، واطلع على الفكر الأوربي ، لكن آثر أخيراً في دفع الحركات الوطنية الاستقلالية في الشرق عامل التربية ، وآثر في التربية أن تكون قوية ، وآثر في عناصرها أن تكون ذا صلة بالتراث الاسلامي ، ورجا أن يكون الأزهر قواماً على هذا التراث .

• • •

الأزهر لا غنى عنه ، وهو باق في العالم الاسلامي ما بقى الاسلام في تصور الشعوب الإسلامية وما بقى عقيدة لأينائه . فبدلاً من أن توضع العقبات في طريق رسالته - وهو الخطر بعينه على الاسلام وعلى الشعوب الإسلامية والعربية - يجب أن تتصافر القوى كلها في صدق واخلاص لتمكينه من أداء رسالته . والأمل معقود على الفاروق قائد النهضة العملية والتعليمية والدينية .

محمد البرهي

أستاذ الفلسفة الفينية بكلية
أصول الدين بالأزهر

إدارة البلديات العامة مجارى

تقبل المطامات بمجلس بور سميد
البلدى حتى ظهر يوم ١٠ / ١٠ / ١٩٥٠
عن توريد أدوات لازمة لورشة
ومحطة المجارى وتطلب الشروط والاراضات
من المجلس نظير ٢٠٠ مليم
خلاف أجرة البريد ٥٨٥١

دون قوم بثات من البلاد الاسلامية التي لم يكن بها ما يشبه الأزهر في نظامه وهدفه إلى مصر لتلتحق بالأزهر وتم دراستها فيه . وإن لم تأخذ هذه المحاولة صورة المنع الواضحة . فوسيليني مثلاً أنشأ أيام حكمه معهداً اسلامياً في « هرر » له مظاهر نظم التعليم في الأزهر وأرسل إليه طائفة من أبناء المسلمين في ليبيا بجانب أبنائهم في الحبشة وأريتريا والصومال الايطالي .

والرحالة الألماني « بول أشيد » يتحدث في كتابه - (الاسلام قوة الهند) الذي أخرجه في سنة ١٩٣٧ بعد رحلة ست سنوات في البلاد الاسلامية - عن مكانة الأزهر كموطن للثقافة الاسلامية ومعقل للحركات الوطنية التحريرية من الاستعمار الأوربي؛ ورمده وأمثاله في شمال أفريقيا والبلاد الاسلامية حاملين عوامل ثلاثة - لو نجت من الاضطهاد الغربي - تقوم عليها النهضة الاسلامية وقوة العالم الاسلامي في غده . والاملان الآخرون في نظرهما؛ قوة النسل في الشعوب الشرقية ، والثروة الاقتصادية الكامنة في اراضيها .

خرج الأزهر عن عزلته رويداً رويداً منذ بداية القرن العشرين وطلبت منه المساعدة الرسمية في الوزارات والمصالح الحكومية المصرية ، وعلى الأخص في وزارة المعارف . وأظهر التخرجون فيه أمانة واتقاناً وحسن أداء فيما يقومون به من عمل هناك ، حتى فيما لم يكن متصلاً بالمواد الأساسية في ثقافتهم ، كمثلهم في مصلحة الأموال المقررة بوزارة المالية .

و نرجو أن يكون طلب المساعدة الرسمية من الأزهر وليد تصحيح الفهم منه كمهد تمثل الثقافة فيه الاتجاه القومي ، وليس وليد الحاجة التعليمية أو السياسية . عندئذ يكون تفاؤلاً بمستقبل النهضات الوطنية عندنا في الشرق العربي ليس من قبيل السراب الخادع .

إن بالأزهر الآن أكثر من ألفين من طلاب البحوث الوافدة إليه ينتسبون إلى أكثر من عشرين موطن اسلامي ويتكلمون شتياً من اللغات ولهم حادات مختلفة ، ولكن لتهم المحببة هي العربية ، ودينهم المعتقد هو الاسلام ، وتقاليدهم المفضلة هي المتصلة بالأمة الاسلامية .